

الشعر المقدسي وسماته الفنيّة

جهاد فيض الإسلام *

أستاذ مساعد في جامعة المصطفى العالمية وجامعة طهران - فرديس فارابي

(تاريخ الاستلام: ١٤٣٥/٨/٢٨ ؛ تاريخ القبول: ١٤٣٥/١٢/٧)

ملخص المقال

يهدف البحث إلى الوقوف عند سمات وخصائص الشعر الفلسطيني بشكل عام والشعر المقدسي بشكل خاص واستعراض تلك الخصائص والسمات ومعرفة تطورها وأثرها على الشعر الفلسطي يني والقدس بالذات حيث شغلت مد ينة القدس مكاناً بارزاً ومم يزاً في القضا ية الفلسطينية وشعرها. تناولت الدراسة الشعر الغنائي، والشعر الدرامي والقصصي، والأسطوري، والملحمي و السمات البارزة في الشعر المقدسي أمثال: الخطاب ية ، والمباشرة ، وروح العقيدة ، والمقاومة ، والالتزام و... لتسليط الضوء عليها والمحاولة لكشفها ودراستها، دراسة أدبية معاصرة لاسيما بعد النكبة والنكسة والانتفاضة، وقد ركز البحث على أبرز شعراء الأرض المحتلة الذين أثار شعرهم على القدس و أثار القدس على شعرهم . ولقد توصلت هذه الدراسة إلى نتائج هامة ذكرتها آخر المقال.

الكلمات الرئيسية

سمات، القدس، فلسطين، الشعر الغنائي، الملحمي، الالتزام.

مقدمة

لا شك أن الشعر مرآة عصره ولسانه الناطق، حيث يعكس ما يختلج في النفوس وكشف عن الأحاسيس والعواطف، ومن هذا المنطلق أن شعر القدس وبعد احتلاله من قبل الصهيونية العالمية يمثل الوجدان الفلسطيني النابض ويعبر إلى حد كبير عن مأساة شعب ناضل ببسالة و شجاعة وجرأة وتصدى وقاوم بكل الوسائل المتاحة لديه من سلاح وحجر وكلمة وأدب ولاسيما الشعر وذلك لأن المقاومة بالشعر هي أحد وجوه الصمود وشعلة النضال والكفاح المستمر وروحه الصارخة حتى تحرير فلسطين وعاصمتها القدس الشريف. وكما نعلم إن الشعر الفلسطيني ولا سيما شعر القدس شهد تطوراً ملحوظاً في الشكل والمضمون وبرزت فيه فنون وسمات تجلّى البعض منها في الشعر الغنائي، والدرامي، والقصصي، والملحمي، والأسطوري، وهنا تكمن أهمية طرح هذه المسألة والوقوف عندها، لذا جاء هذا البحث ليلقي ضوءاً أو أكثر على السمات والخصائص الأساسية في شعر القدس ونعني بها تلك السمات التي اصطبغ بها الشعر في فلسطين وكان لمدينة القدس الأثر البالغ في تحريك بل إشعال نيران قلوب شعراء المقاومة ومن تلك السمات: النزعة الثورية، والخطاب المباشر، وروح العقيدة والإيمان، والالتزام بالإنسانية والشرائع السماوية، والاصرار على المقاومة...

ولهذا الاختيار ما يبرره، فقد توغلت صورة القدس في جسد القصيدة الفلسطينية لدى أكثر شعراء المقاومة بصورة لافتة للانتباه، وهو أمر - فيما يعلم الباحث - لم يتحقق لدى الشعراء الآخرين. ومن هؤلاء الشعراء: هارون هاشم رشيد، حسن البحيري، محمود الحوت، محمد شمس الدين، فدوى طوقان، نزار قباني، سميح القاسم، عبد الرحيم محمود، فقد شكلت تلك الميزات والخصائص النسيج الأساس في شعرهم.

هذه الدراسة قطعاً لا تدعى أنها أول من طرق هذا الباب ولكن يتميز هذا البحث إلى حد كبير عن الدراسات السابقة من كتب ومقالات ورسائل جامعية - والتي استفدت منها كثيراً- أمثال: الشعر الفلسطيني المقاتل لنزيه أبي نضال (١٩٧٤)، الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين لعبد الرحمن الكيالي (١٩٧٥)، الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة لصالح أبي

أصبح (١٩٧٩)، موسوعة الأدب الفلسطيني لسلمى الجيوسي (١٩٩٧)، وأدب المقاومة لغالي شكري (١٩٩٧)، الشعر المقاتل في الأرض المحتلة لهارون هاشم رشيد (١٩٦٥)، الأدب الفلسطيني المقاتل تحت الاحتلال لغسان كنفاني (١٩٦٨)، وأدب المقاومة في فلسطين المحتلة للمؤلف نفسه (١٩٦٦)، أدبيات بايداري لمحمد رضا سنكري (٥١٣٨٢ ش)، وغيرها من الدراسات الأخرى، بأنه محاولة لرصد ميزات وخصائص الشعر المقدسي والتركيز عليها نقداً وتحليلاً وبيان مدى تأثيرها في الإنسان الحر بشكل عام والإنسان المسلم بشكل خاص بأبعادها الموضوعية والفنية. ولكن الدراسات السابقة مع أهميتها، لم تعالج الموضوع بهذا الشكل المركز والمنسجم، حيث تناولتها إما تناولاً عاماً وخاطفاً أو لم تعرض لها وركزت على موضوعات الشعر الفلسطيني بشكل عام كالموضوعات الاجتماعية، أو موضوع الجهاد... فقط، ولا فرق في الدراسات التي قدمت في البلاد العربية أو الجمهورية الإسلامية في إيران، إضافة إلى هذا فإن كل ما قيل وكتب ويقال وكتب عن القدس وفلسطين ليس كافياً وما زال الشعر المقدسي معيماً خصباً للبحوث والدراسات شكلاً ومضموناً وذلك لسبب بسيط ألا وهو عمق الجراح، وكثرة النزيف، وشدة الألم، وطول الزمن، حيث نشاهد القدس لا تزال مكبلة بقيود الاحتلال.

أيضاً يحاول هذا المقال، الكشف عن مدى أثر القدس على الشعر الفلسطيني، وهل هذا الأثر يلاحظ عند كل شعراء فلسطين؟ وهل يختص بجيل دون جيل؟ وهل استطاع شاعر القدس شحن العزائم لتحرير مدينته؟ ما هي الخصوصيات الملموسة في هذا الزخم الكبير من الشعر؟ هذه أسئلة نحاول الإجابة عنها - بحول الله وقوته - وقد رأى الباحث في هذه الدراسة أن يتبع المنهج الوصفي الذي يتيح له القدرة على وصف سمات شعر القدس والتوقف عندها والتأمل في بعض زواياها ليتزود بمعلومات تمكنه من التحليل والتفسير واتخاذ القرار فيما تسفر الدراسة عنه من نتائج.

أولاً: القدس والفنون الشعرية:

أ. القدس والشعر الغنائي.

ب. القدس والشعر القصصي والأسطوري والدرامي.

ج. القدس والشعر الملحمي

ثانياً: القدس . الخصائص والسمات:

أ . الخطابية المفرطة والمباشرة.

ب . البساطة والوضوح.

ج . روح العقيدة والمقاومة والالتزام.

أولاً: القدس والفنون الشعرية

أ . الشعر الغنائي

اختلف القدامى والمحدثون في تحديد الشعر الغنائي. فانطلق الفريق الأول من الشكل الخارجي وانطلق الفريق الثاني من المضمون في التعريف به. وذلك لأن القدامى كانوا يفتنون الشعر فيرتبون أبياته بطريقة تيسر لهم انشاده وترتيله، في حين أن المحدثين نظروا إليه على أنه تعبير عن العاطفة الانسانية. ومع ذلك فقد أجمعوا كلهم على أن الشعر الغنائي هو غنى النفس. أيضاً قالوا الشعر الغنائي يعني بالموضوعات الشخصية والعامة التي تشمل حياة الانسان والعالمين المحسوس وغير المحسوس اللذين ينطلقان من الانسان ويدوران حوله متسعين شيئاً فشيئاً ليشملا قضايا الفرد، والأسرة، والوطن، الانسانية، والطبيعة، والعالم، والله. (جورج عبدالنور، ١٩٧٩، ص١٥١) ويمكن أن نقول الشعر الغنائي هو أغنية الإنسانية ورسالته التي يتغنى بها، وفن يعبر به عن أحاسيسه وعواطفه، فرحه وحزنه، حنينه وآلامه، سعادته ومأساته، فهو يتحدث عن الأشياء ليخلق منها صورة متألفة، متصلة، مترابطة، تنفجر من أعماق وجدانه وأحاسيسه وعواطفه، فيجسد أمام المتلقي تلك الأشياء فيعيشها هو كذلك ولقد اتجه جل شعراء القدس إلى هذه الحالة الشعورية، فغنوا للقدس وتغنوا بها لا سيما في العقود الأولى من الاحتلال الصهيوني، كما نرى في قصيدة "عرس المجد" للشاعر عمر أبو ريشة

يا روابي القدس يا مجلس السنا يا رؤى عيسى على جفن النبي

(أبو ريشة، ١٩٧١، ص١٤٥)

وهكذا قصيدة "المدينة الحزينة" للشاعر هارون هاشم رشيد إذ يقول:

وقفت في أبوابها / بكيت في أعتابها / سجدت في محرابها / مدينة القدس التي /

تضيء من عذابها / عشقتها، أحببتها / سكنت في أهدابها / فديت كل رملة / تضيء من
 ترابها / مدينتي مشدوهة / تهفوا إلى أحبابها (هارون هاشم رشيد، ١٩٨٠، ص ٥٨ . ٦١)

فالجرس اللفظي والرنه الشعرية ذات الإيقاع القوي المنبثق من أعماق نفسه الحزينة
 واضح في القصيدة، فالشاعر أكثر من استخدام الفعل الماضي ليدل على ارتباطه بالقدس
 وحينه لها، فهو العاشق والمدينة معشوقته، يتغنى بها، يشعر بالأمها وأينها، فلا يمكن مرور
 الأيام والبعد أن يكونا حائلاً ومانعاً.

وأكثر شعر القدس قبل السبعينيات شعراً غنائياً لا سيما شعر الحنين والشعر الاجتماعي
 والقومي بشكل عام والملاحظ أن شعر القدس الغنائي يتسم بالصدق العاطفي والجمال
 والانسجام والتعبير عن مشاعر الشاعر الجريحة، وقد تطور هذا الشعر ابتداءً من قصيدة
 "الشهيد" للشاعر عبد الرحيم محمود

وهو يستعمل البحر المتقارب الذي يقرب كثيراً من الروح الغنائية الحماسية.

سأحمل روعي على راحتني	وألقي بها في مهاوي الردى
فإمّا حياة تسرُّ الصديق	وإما ممات يغيظ العدى
ونفسُ الشريف لها غايتان	ورودُ المنايا ونيل المنى
وما العيشُ؟ لا عشتُ إن لم أكنَّ	مخوفَ الجناب حرام الحمى
إذا قلتُ أصغى لي العالمون	ودوى مقالي بين الورى
لعمركَ إني أرى مصرعي	ولكن أتخذُ إليه الخطى
أرى مصرعي دون حقِّي السليب	ودون بلادي هو المبتغى
يلذُّ لأذني سماعُ الصليل	ويبهج نفسي مسيل الدما
لعمركَ هذا ممات الرجالِ	ومن رام موتاً شريفاً فذا
فكيف اصطباري لكيد الحقود	وكيف احتمالي لسوم الأذى
أخوفاً وعندي تهون الحياة	وذلاً وإني لربُّ الإبا
بقلبي سأرمي وجوه العُلاةِ	فقلبي حديدٌ وناري لظى

(عبدالرحيم محمود، ١٩٧٤، ص ٣١)

في بداية الاحتلال عام (١٩٤٨م) توجّب على الشعراء تبني قضايا أمّتهم وقبول المسؤولية تجاه الوطن والوقوف بوجه العدو، فمن هنا برز الشاعر الملتزم الشهيد عبد الرحيم محمود ليحمل هموم أمّته ليجاهد بالكلمة والبندقية معاً، فتغنّى لمجابهة العدو الصهيوني حاملاً روحه على كفه يرى في الموت حياة، حياة الوطن، حياة الحرية... وفعلاً كتب حروف هذه القصيدة بدمائه الزكية في معركة الشجرة والتي تحولت إلى نشيد تردده الأجيال إلى يومنا هذا فكلما تعمّق الوعي الفردي ازداد الشعر الغنائي ازدهاراً وقيمة ليجعل قضية القدس حية على طول التاريخ.

ب. القدس والشعر القصصي والأسطوري والدرامي

ما من شك أنّ الشعر القصصي والأسطوري والدرامي ترك أثره في القدس وقصيتها، وفي المقابل كان للقدس الأثر البالغ فيه أيضاً.

ولعلّ أول من طرّق هذا الباب في قضية القدس وفلسطين هو برهان الدين العبوشي في محاولة مسرح قصصي سماه "شبح الأندلس" في مجموعة قصائد عمودية سجل فيها جانباً من نكبة عام (١٩٤٨). وكذلك الشاعر محيي الدين الحاج عيسى أطلق على محاولته القصصية اسم "أسرة شهيد" صور فيها مأساة النكبة أيضاً. هاتان المحاولتان كانتا البوادر الأولية لاعتناق هذا الفن كما يقول عبد الرحمن الكيالي (الكيالي، ١٩٧٥، ص ٣٢٨)

وقد نضج الفن القصصي والأسطوري والدرامي لشعر القدس من عقد لآخر، كما سلكه الكثير من الشعراء أبرزهم: فدوى طوقان، محمود درويش، سميح القاسم، نزار قباني، توفيق زياد، فهامي الشاعرة فدوى طوقان في قصيدة "إلى الوجه الذي ضاع في التيه" إذ تحكي لنا قصة تصرف المحتلين لمدينة القدس العذراء وليلها الداجي ومآسي سكانها الأبرياء:

الأسى يهطل، ليلٌ والقدس صمت / وقتام / حظروا التجوال، لا تطرق في / قلب المدينة / غير دقات النعال الدموية / تحتها تنكمش القدس كعذراء سبية (طوقان، ١٩٨٣، ص ٨٢)

ونرى الشاعرة نفسها في قصيدة ثانية "إلى السيد المسيح في عيده" (طوقان، ١٩٨٣، ص ٣٤) بعد ما حاول المتآمرون على القدس تبرير الاحتلال وإعطائه الشرعية، كيف تفضح نوايا

المحتل وتزيل التمويه عنه إذ تلجأ إلى الكتاب المقدس تستعير منه "قصة الكرامين" الذين قتلوا الكريم وادعوا الكرم.

قتل الكرامون الوارث ياسيد / واغتصبوا الكرم! / وخطاة العالم ريش فيهم طير الإثم / وانطلق يدنس طهر القدس / شيطاناً ملعوناً، يمقته حتى الشيطان! / يا سيد يا مجد القدس / من بئر الأحزان، من الهوة، من قاع الليل / من قلب الويل / يرتفع إليك أنين القدس / رحماك أجز يا سيد عنها هذه الكأس (إنجيل مرقس، ١٩٩٧، ص ١٦٣)

فالصورة التي رسمتها الشاعرة في هذه القصة هي النموذج الحي للاحتلال الصهيوني. وهكذا قد استخدم شعراء القدس الفن الدرامي من حوار مع الغير، وحوار داخلي ومسرحي فيصفون الحدث حتى يراه المتلقي واقعاً ملموساً، فهناك قصائد كثيرة يتوفر فيها هذا النمط من الشعر.

كما هو الحال في قصيدة "سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا"

فهي قصيدة حوارية على الأسلوب السينمائي المحتاج، وكذلك القصيدة الدرامية للشاعر سميح القاسم "زنايق لمزهرية فيروز" ولأن الصورة لا تتم إلا بنقلها كاملة فهي هو نصها.

من أين يا صديقة / حملت المزهرية / والنظرة الشقية؟ / من القدس العتيقة / ومن ترى رأيت / في عتمة القناطر / من شعبنا المهاجر.؟ / رأيت بنت عمك! / في طاقة حزينة / تبوح للمدينة / بهمها وهمك / رأيت في الشوارع / ليلاً من العيون / وإخوة يبكون / وألف طفل ضائع / رأيت سائحين / وبائعاً يصيح / من يشتري المسيح / بحفنتي طحين؟ / رأيت في المداخل / عصفورة جريحة / وطفلة كسيحة / تبكي على المآذن! / ومرة... سمعت / مغنياً مهاجر / يصيح... يا ضمائر / أضعت يوم ضعت؟ / هناك يا ابن عمي / حملت المزهرية / والنظرة الشقية / وقصة عن أمي / عن أمي الضحية / لدي يا صديقة / زنايق حمراء / ألوانها دماء / من القدس العتيقة! / زنبقة حزينة / من دم بنت عم / وجدتها مذبوحة / في طاقة مفتوحة / تصيح بالمدينة: / قولي لابن عمي! / زنبقة بريئة / من مقلة مفقوة / لكنها تنادي: أراك يا بلادي! / زنبقة ريانة / من طفلة محروقة / تصيح: يا خليفة / مهلاً! أنا عطشانة! / زنبقة شريتها / من بائع مجندل / على سياج منزل / لكنني .. ما بعثها! / إليك يا صديقة / زنايقي الحمراء / زنايقي الدماء / كي تكمل الهدية / ورد... ومزهرية / من القدس العتيقة! (درويش، ١٩٩٤، ص ٢٢٩)

القصيدة حوار، مسرحي، له نغماته الخاصة، فالشاعر حشد فيه مجموعة من الصور غير مترابطة يمكن تفكيكها لولا الإطار العام والكلي للقصيدة وذلك بهدف تقديم انطباع عام عن أحوال القدس وقضيتها، فالتصوير مباشر، والمشهد أليم ومأساوي. لأن الدراما والأقاصيص والأساطير في شعر القدس يختلف عن غيرها، فالقصة: قصة شعب يذبح، تقطع أوصاله، تسبى شيوخه ونساءه، قصة الدّم المسفوح والطفل المذبوح، هذا ما تقوله فدوى طوقان (القاسم ١٩٩٣، ص ٢٨٤-٢٨٧)

أحبتني الصغار، خلف الأنهار يا أحبتي / عندي أقاصيص لكم كثيرة / غير حكايا
السندباد، البحر، / غير قصة الجنّي والصيد، / وقمر الزمان والأميرة! / عندي أقاصيص
هنا جديدة / أخاف لو أروي لكم أحداثها / أطفئ في عالمكم ضياءه / أخاف أن أروّع
الطفولة / أهرّ في جزيرة البراءة / رواسي الأمان والسكينة / أخشى على دنياكم الصغيرة
/ من قصص السجين والسجان / من قصص النازي والنازية / في أرضنا، فإنها رهيبة
/ يشيب يا أحبتي لهولها الولدان (طوقان، ١٩٨٣، ص ٢٨)

فشعر القدس القصصي هو شعر اعتبار وعبرة، ممزوج بالواقع والحدث، من أجل مستقبل يحلم به الإنسان الفلسطيني المغلوب على أمره.

ج . القدس والشعر الملحمي

ويراد منه كما عرفه "أميل يعقوب" (يعقوب، ١٩٨٧، ص ٣٧٤) بأنه فن أدبي يقوم على الشعر البطولي، ويهدف إلى تعظيم شعور جماعي، ديني، أو وطني، أو إنساني، في سرد قصصي رمزي، فقلما نجد لهذا الفن الشعري أثراً في شعر القدس، وذلك لأسباب غامضة نأمل أن يقدم الشعراء ملحمة لبطولة القدس وبطولة الشعب الفلسطيني في القريب العاجل، إلا أن "السوافيري" (السوافيري، ١٩٦٤، ص ٦٠٢-٦٠٨) قد أشار إلى بعض الملاحم منها: ملحمة "النازحة" للشاعر اللبناني محمد شمس الدين وتشتمل على ثمانية وثلاثين نشيداً وعدد أبياتها ١٩٠ بيتاً وهي تحكي قصة نازحة أجلاها العدو عن وطنها برفقة أمها وابنها ولسوء الحظ فقدتهما نتيجة الجوع والتعب المفرط وبقيت هي تتجرع كأس الأسى والحزن لتموت تدريجاً، يقول الشاعر:

وسرتُ وفي مُهجتي غصّةً تتنّ على دمعة النازحة
وباتت فلسطين في خاطري وأبصرتُ غادتها النائحة
ودنيا القيامة لاحت ظلّالها حزاني وصخرتها الصادحة
وعادت إلى القلب غرناطة ومأساةً أندلس الذابحة
فأطبقتُ جفني على دمعةٍ وما أشبه اليوم بالبارحة

(شمس الدين، ١٩٥٠، ص)

الملحمة مطبوعة عام (١٩٥٠م) يبكي بها الشاعرُ القدسَ ويقارنها مع الأندلس ويرسم صورة الاحتلال فيها ولكنه يركّز على مأساة اللاجئين لا سيما الأمهات والأطفال فيها، هكذا تبدأ:

هذي بقايا أدمع قانية ومهجة، مكلومة، دامية
للمتها، والليل، في صمته يرمقني، والنجمة السارية
.. ترسلها ليلي .. إلى ربها بقية، من روحها، باقية
باكية القلب، ويا لهفتا على أنينِ الغادة الباكية!!
أنشودة كئيبة في فمي لكنها في أضلعي داوية
أبكي بها القدس ومسرى العلى وأندب الأندلس الثانية ...
(شمس الدين، ١٩٥٠، ص٢٣)

ثم الشاعر يستنجد بالتاريخ ويورق صفحاته المجيدة، فيرى من المستحيل أن تدنس قدس محمد ﷺ ومهد المسيح ﷺ ويدوم الاحتلال قائلاً:

أطلب صهيون مهد المسيح، ومسرى محمد، قدس العلى؟!
ونحن لنا المجدُ والخالدات من الدهر، نحن أسود الفلا
سنسحقه، أو يخوض البحار، ليلقى بها ليله الأليلا
تركنا، على الدهر دنيا الحضارة تزهو، ومجداً غداً أولاً
وذا ركبنا يتخطى الحدود لبيطش بالغادرين الأولى (المصدر نفسه،
ص٢٩).

ولهذا فالشاعر يشيد بالأمجاد ثم يذكر أن النازحة تقدّم زوجها قرباناً للوطن وللقدس والإسلام، لكنّها لن تنثني مهما كلف الأمر

وكفنته بالدموع السواكب، والهفتا للدموع السكبية!

وخلفي أمّ تشق الجيوب، وطفلٌ يذوّب حزنًا نحيبه

يقول له: "بابا"، إن اللّيم سيرجع فانهض ومزّق دروبه! (المصدر نفسه، ص٢٩)

ثم يتخيل الشاعر الزحف العربي - والإسلامي - نحو فلسطين والقدس قائلاً:

فلسطين .. يا قدس الأنبياء ويا كعبة الظالمين الحجيج

أفيقي على جلجل الانتصار، وصبّي العذاب . تميتي العُوج ..

سلامٌ على قدسك المستظل، بنور السماء، وسرّ الثلوج .. (المصدر نفسه، ص٣٩)

فالشاعر قد أجاد في تقديم الصور الجمالية حيث استاق صورته من التاريخ، والمأساة، ومزج ما بين الخيال والواقع واستخدم التشبيه والاستعارة بشكل واسع ولكن الملحمة تبقى إلى حد ما غير ناضجة وفيها من الغموض في المعنى ما لا يخفى إضافة إلى استعمال الألفاظ العامة أحياناً.

وذكر السوافيري أيضاً ملحمة باسم النخيل للشاعر اللبناني محمد علي الحوماني ولكن الشاعر لم يتعرض للقدس فيها، ورأيت من المناسب أن يتوقف البحث عند ملحمة الشاعر الفلسطيني محمود الحوت وذلك لما فيها من دروس ومعان راقية.

الملحمة تحتوي على ستة وعشرين نشيداً، ويتألف كل نشيد من ثمانية أبيات على وحدة الوزن واختلاف القافية، تحكي الملحمة حوادث نكبة عام (١٩٤٨م) بنقد لاذع وسخرية قاتلة يقول الشاعر:

سبعٌ من الدول الكبرى تناصرها	شهرًا، فكان الذي قد كان من خطب
أما الثلاثون عاماً وهي روايةٌ	عن كبحنا أمّتي قهرٍ ومستلب
فلم تنل من شباب راح يُضرمها	في وجه ملتجئٍ، منهم ومغتصب
ليت العروبة في أبّان وثبتها	لم تشهر السيف بتاراً ولم تثب
إذن لكان لها في قلبهم هلعٌ	وكان بعض الذي نبغيه من أرب
	(الحوت، ١٩٥١، ص٦)

نلاحظ في هذا النشيد الثاني من الملحمة كيف سخر الشاعر من المشاركين في حرب فلسطين عام (١٩٤٨م) فنجده يحكي القصة والحماسة والفخر بأسلوب ملحمي، ولكنه بلغة كوميدية مليئة بالسخرية ثم يعجب من الذي جرى وحدث في القدس وفي فلسطين إذ لم يكن له شبه في التاريخ لذا يتساءل قائلاً:

فهل سمعت بحرب كالتى نكبوا بها فلسطين، واجتاحوا أهاليها
 وشنتوهم ضحايا هائمين على وجوههم بعد تركين العدى فيها
 وعاد كلُّ إلى الأوطان تُرهقه رسالةً كان في الأقصى يؤديها
 (المصدر نفسه، ص٧)

نشاهد بوضوح أن الشاعر سلك مسلك اللوم واليأس ولكنه سرعان ما عاد ودعا إلى الوحدة والتضامن ثم يأخذ بتحليل الفاجعة فيرى قضية الاحتلال والنكبة هي نتيجة لمؤامرة كان منذ الابتداء هدفها الأقصى والقدس وفلسطين فيقول في النشيد الرابع عشر:

ما كنت إلا على الأقصى مؤامرة حقيرة حاكها تفكير رعيدي
 وسار فيها صنيعها غاية لؤمت موحى إليه وموح بعد تمهيد
 فسيراً من شباب العرب خيرتهم إلى وغي واعتراك غير محمود
 وكلما اقتحم الميدان باسهم وأوغلوا، أقفاهم في المواعيد!!
 (المصدر نفسه، ص١٨)

الملحمة محاولة جادة تناسب العواطف والأحاسيس وقد اختار الشاعر الألفاظ الواضحة والسهلة ولكن يظهر أنها لا تتسم بالجزالة ويمكن أن يقال إن الشاعر كان في بداية محاولته الشعرية، وفيها من القوة مالا يخفى إذ استاق الشاعر صورة من الجرح النزيف وواقع الحدث وقد استعان بالماضي ليستدرك المأساة ويقدم بعض العلاج.

وقد ذكر الدكتور عبد الرحمن الكيالي ملحمة للشاعر الفلسطيني عصام حماد تحت عنوان "ديان بيان فو" وهي مخطوطة يخلد فيها بطولة الشعب "الفيتنامي" حين أسقط قلعة "ديان بيان فو" ويتمنى "عصام" أن يسمع أصداء البطولة في القدس إذ يقول:

بيد النذار الفيتنامين /يمجده الغفر الحرفي الخافقين/فتسمع في القدس أصداءه/وتلمح
 آثاره في العراق /وفي مكة وضاف الخليج /ومصر وتونس والمغرب (الكيالي، ١٩٧٥، ص٣٢٩).

ثانياً: خصائص وسمات شعر القدس

أ. الخطابية المفرطة والمباشرة

"الشعر الفلسطيني هو الذي أيقظ الغافلين ونبه النيام، واستنهض الهمم، وقاوم الاستعمار وفضح أساليب ختله وخداعه، وكشف القناع عن دسائس الصهيونية، وهو الذي نشر الوعي، وبصر بالحقائق وتنبأ بالكارثة وتوقع المأساة واستلهم العبرة من الأندلس، وهو الذي حض على الثورة وألهب المشاعر، وهو الذي مجدّ البذل، وقَدَّس التضحية وترنّم بالفداء وخلد الشهداء" (السوافيري، ١٩٦٤، ص ٣٠١) بالأحاسيس الساخطة وبصوت من التشنجات العاطفية المتفجرة، فمنذ وعد بلفور (١٩١٧). الذي أحس فيه الشاعر بضياع الوطن والقدس إلى يومنا هذا. تماشياً مع التطورات والأحداث، لذا تفجرت نبرة صوته عندما رأى الممارسات الصهيونية وقسوة العدو، فاتّسم الشعر بالخطابية المفرطة والنعمة الإرشادية الوعظية الشديدة في بداية المؤامرة واشتدت هذه اللهجة الخطابية بعد نكبة عام (١٩٤٨م) لأنها الأكثر تناسباً مع الحدث، يبدو ذلك جلياً في كثير من قصائد حسن البحيري، محمود درويش، يوسف الخطيب، هارون هاشم رشيد، سليمان العيسى، نزار قباني وغيرهم كما نلاحظ في قصيدة "الحب والبترو" للشاعر نزار قباني قائلاً:

فبعتَ القدسَ ... / بعتَ الله .. / بعتَ رمادَ أمواتك .. / كأنَّ حِرَابَ إسرائيلَ لم تُجهِضْ
شقيقَاتك .. / ولم تهدمُ منازلنا ... / ولم تُحرقْ مصاحفنا .. / ولا رايَاتها ارتفعت .. / على
أشلاء رايَاتك .. / كأنَّ جميعَ مَنْ صُلِبُوا .. / على الأشجارِ في يافا .. وفي حيفا ... / وبئر
السبع .. ليسوا من سلالاتك .. / تغوصُ القدسُ في دمها، / وأنتَ صرِيعُ شهواتك (قباني،
١٩٩٣، ج٣، ص ٦٧)

لا تخفى النبرة الحادة والخطابية المفرطة في جمل وألفاظ هذه الأشطر من القصيدة فهي أقرب شيء إلى الجلد والضرب العنيف، فصور الشاعر أولئك المتهاونين بقضية القدس، بأنهم باعة القيم والمعتقدات والتراث، فهم بلا دين ولا تراث لهم ولا غيره ولا حمية، وذلك لأن القدس تغوص بالدم وهم يغوصون في لذاتهم وشهواتهم، لهذا استخدم الشاعر الألفاظ العنيفة والمباشرة فهي معركة لفظية استخدمت فيها كل وسائل التنديد والتجريح من أجل كرامة القدس، وقد استمرت إلى يومنا هذا وتستمر إلى تحريرها من الاحتلال الإسرائيلي.

ويأتي الشاعر المغترب هارون هاشم رشيد في الدرجة الثانية بعد نزار قباني حيث أتصف شعره وامتاز بهذه الصفات كما نلاحظ في قصيدته "الحريق".

ليحترق كلامنا / لتحترق أقلامنا / لتحترق كل معاني / الكبر في بلادنا / لتحترق
أعلامنا / فالمسجد الأقصى احترق / المسجد الأقصى احترق / ليحترق كل الذي شرعه
كلام / وعمره كلام / وعيشه كلام / فراية الإسلام / احترقت .. / والمسجد الحرام /
منكس الآيات والأعلام (رشيد، ١٩٨٠، ص ٥٢)

فنلاحظ الألفاظ - ليحترق - لتحترق - ساحنة، ساخطة، تلتهب مع الأقصى بروح متوترة
وصوت صارخ ومنتفجر حامل الغضب والتنديد والرفض، فصيح الأمر مع لام التأكيد لها
وقعها وشدتها الخاصة مما جعلتها تناسب ما حل بالحرم والمسجد الأقصى والقدس
الشريف.

هذا النمط سواء أكان عمودياً أو شعر تفعيلية فهو كثير في شعر القدس ولا شك أنه خدم
القضية إذ جعلها دائماً تغلي في الصدور.

لكن هذه الخطائية قلت من حدتها واتجهت للاستقلال والتعقل بعد الانتفاضة الأولى.

ب. البساطة والوضوح

استطاع الشاعر الذي كتب في القدس شعراً، أن يستخدم لغة الشارع، اللغة العامة عند
الناس وذلك لأن القدس قدسهم، والقضية قضيتهم واللغة السهلة والواضحة هي السبيل إلى
القلوب وهذا ما جاء على لسان محمود درويش إذ يقول:

قصائدنا بلا لون، بلا طعم بلا صوت إذا لم تحمل المصباح من بيت إلى بيت

وإن لم يفهم البسطة معانيها فأولى أن نذريها ونخلد نحن للصمت

(درويش، ١٩٩٤، ص ٥٥)

ويؤكد هذا المضمون الشاعر نفسه في موضع آخر:

أجمل الأشعار ما يحفظه عن ظهر قلب كل قارئ ..

فإذا لم يشرب الناس أنا شيدك شرب

قل، أنا وحدي خاطئ (درويش، ١٩٩٤، ص ٦٥)

دور الشعر الجماهيري في وطننا العربي - والإسلامي - تنقصه واقعة مؤلمة، تلك هي نسبة الأمية المتفشية بين أبناء الأمة العربية - والإسلامية - إذ تزيد على ثلاثة أرباع مجموع السكان (أبو أصبح، ١٩٧٩، ص ٢٧٨)

أشهر شعراء هذا المسلك - أي الشعر البسيط والسلس وذو المعاني والأفكار الواضحة هم: هارون هاشم رشيد، محمود درويش، نزار قباني، سليمان العيسى، عبد الله يوركي حلاق، حسن البحيري، ابتعدوا عن التكلّف والتعقيد والابتدال اللفظي لينتقل الشعر إلى المتلقي بأحاسيس الشاعر وعواطفه وبأسلوب ملائم ويتناسب مع الموضوع كما نشاهده في قصيدة "المسجد الأقصى" للشاعر حسن البحيري إذ يقول:

وقفْتُ في "المسجد الأقصى" أسألهُ	والنَّارُ في جَنَابَاتِ الصِّدْرِ تَسْتَعِرُ
ما بالُ محرابِكِ الطُّهْرِيُّ تَغْمَرُهُ	ظلالُ غَمِّ دُجَاهَا ليس يَنْحَسِرُ
وما لِمَنْبِرِكَ القُدْسِيِّ مَكْتَباً	فما عليه لصوتِ الحَقِّ مُنْتَبِرُ
وللمآذِنِ قد غابتْ أهْلَتُّهَا	فما عليها لإشراقِ الهدى أُنْرُ
فقال مُسْتَعْبِراً والرَّوعُ يُنْطِقُهُ	والأَرْضُ من تحتهِ البُرْكانُ يَنْفَجِرُ:
رَمَى البِغَاةُ رِحَابِي رَمَى مَنْتَقِمِ	وليس لي من مَرَامِي حِقْدِهِمْ وَزْرُ
وليس لي من ذَوِي القُرْبَى أخو شَمَمِ	وليس لي من طُغَاةِ الجَوْرِ مُنْتَصِرُ

(البحيري، ١٩٨٢، ص ٨٣)

نلاحظ سهولة وبساطة الصياغة والمفردات في هذه القصيدة فإنها قد تصل إلى الكلام المنثور لولا نظامها وموسيقاها الشعرية. ومن البديهي فإن تكرار المفردات والمصطلحات ساعد على وضوح شعر القدس وبساطته إذ يكاد ينحصر معجم الشعر في محور البحث في ألفاظ محدودة ومفردات معدودة أقرب شيء للمعجم اليومي المستعمل عند عامة الناس في هذه البلاد، وكما يرى الدكتور محمد غنيمي هلال، بأن الكلام إذا كان لفظه حلواً عذباً، سلسلاً سهلاً، ومعناه وسطاً دخل في جملة الجيد وجرى مع الريح (النقد الأدبي الحديث، ص ٦٠٧)

ج . روح العقيدة والالتزام والمقاومة

روح العقيدة والالتزام والمقاومة الذي حمله لنا شعر القدس في محاور البحث، هو الشعر الذي لم يحمل لنا البكاء والنواح واليأس وروح التراجع والتقهقر بل حمل للعالم وللأجيال القادمة روح العقيدة والمقاومة وذلك لأنه لم ينكب وينطوي على نفسه تحت ظاهرة الانتكاسات الذاتية بل جعلها جسراً يمر عليه ومنطلقاً نحو أهدافه السامية وتحرير أرضه، ليس هو كما يقول أدونيس .. بأن شعر المقاومة شعر احتجاج ليس إلا، حيث لا يرى في الأرض المحتلة شعر مقاومة حمل روح العقيدة والجهاد وكل ما هناك أنه شعر وصفي وثراء لحركة المقاومة (أدونيس، ١٩٧٢، ص ١٧٢)

إذ أننا نرى منذ وعد بلفور (١٩١٧) وإعلان دويلة إسرائيل ونتيجة تخاذل وتقايس بعض الحكام انطلق شعر المقاومة قوياً مجاهداً صامداً يذب ويدافع عن الأرض في الكلمة كما يدافع المجاهد في رفضه وسلاحه فتغنى للمقاومة وحمل الحجارة وحمل روح التضحية والعقيدة. ولقد كانت من ثماره صمود مدينة القدس وانتفاضتها المتكررة، ولأنه ذكرنا الكثرة من الشعر الذي يدل على هذا المضمون في محله . الثورة والجهاد . الانتفاضة المقدسة . فهذه الظاهرة يمكن ملاحظتها جلية في شعر القدس.

ويمكن أن أنه إلى أن شعراء المقاومة هم: محمود درويش، سميح القاسم، توفيق زياد، راشد حسين، محمود عبد الرحيم، هارون هاشم رشيد، علي عقلة عرسان، خالد أبو خالد، سليمان العيسى، عبد الله يوركي حلاق، فدوى طوقان، سلمى خضراء الجبوسي، نزار قباني، ونجيب جمال الدين، وعبد الكريم الكرمي " أبو سلمان" وكمال رشيد والخ...

هكذا نخلص إلى القول:

- نلاحظ الخطائية والمباشرة في بداية الاحتلال عام (١٩٤٨م) تطفى على الشعر الفلسطيني وبشكل مفرط للغاية، ويظهر أن منشأ هذا اللون من الإفراط يعود إلى نكبة عام (١٩٤٧) وصدمتها الكبرى، والذي ميز هذا الخطاب المباشر الشعري عن غيره من الخطابات الشعرية المباشرة كما نلاحظها في شعر العصر المملوكي والعثماني وأواخر العصر العباسي الثاني الذي اصطبغ بها الشعر آنذاك ونشاهد فرقاً كبيراً بين الحالتين لأنه يمكن أن نقول - في ما يسمى بعصر الانحطاط - منشأ الظاهرة الأنفة الذكر هي الركافة

وأحياناً الابتذال الشعري، أما في الشعر الفلسطيني والشعر المقدسي الظروف الخاصة هي التي تحكمت بالشعور ولم يكن منشأ الضعف والفن. واستمرت هذه الصفة الشعرية إلى أواخر السبعينيات إذ المأساة أخرجت الشعر من الغنائية والرومانسية إلى الخطابية والمباشرة نتيجة الحدث الفادح والحاجة الماسة إلى التحريض والنضال، وعاد شعر القدس إلى هذه الصفة مرة أخرى نوعاً ما بعد الانتفاضة الأولى.

- شعر القدس الملحمي والمسرحي لم يأخذ مكانته المناسبة وإلى الآن رغم بعض المحاولات التي قام بها البعض أمثال الشاعر محمد شمس الدين ومحمود الحوت ومن المناسب أن يقدم الشعراء ملحمة شعرية شاملة لمدينة القدس وفلسطين.

- الشعر القصصي والدرامي والأسطوري لعب دوراً كبيراً في قضية القدس مما جعل الحدث وما تمر به القدس حياً لا يغيب عن الأذهان وكان الدور الفاعل للشاعرة فدوى طوقان وسميح القاسم ومحمود درويش وغالباً ركّز على مأساة اللاجئين والأطفال وما عانته وتعانيه القدس من قساوة الاحتلال.

- اتسم شعر القدس بالرقية والوضوح وبساطة القاموس اللغوي كما نشاهد شعر أكثر الشعراء أمثال نزار قباني، هارون هاشم رشيد، حسن البحيري، محمود درويش، ولعل السبب في ذلك أنّ القدس ليس قضية فنية يعرض الشعراء عضلاتهم فيها بل هي قضية الإنسان المظلوم، قضية الشعب المنكوب، قضية الاحتلال والدمار والويلات .. لذا أراد الشاعر أن يفهم الجميع حتى أبسط إنسان يدب على وجه الأرض.

وهذا لا نلاحظه في غير الشعر المقدسي والفلسطيني بشكل عام إلى هذا المستوى ولعلّ الاختلاف يعود إلى الظروف الدّاخلية والخارجية للقضية الفلسطينية والتحوّلات السريعة التي طرأت عليها لاسيما التحوّلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

- اتسم شعر القدس غالباً بالالتزام وروح العقيدة الإسلامية والمسيحية وذلك لمكانة القدس السماوية لدى الأديان الثلاثة، نلمس هذا في شعر نزار قباني، هارون هاشم رشيد، حسن البحيري، فيوى طوقان، محمود درويش .. أكثر من غيرهم.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. الكتاب المقدس (١٩٩٧). العهد الجديد. إنجيل مرقس، دار المشرق، بيروت: ط ٤.
٢. أبوإصبع، صالح (١٩٧٩). الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة. المؤسسة الشعرية للدراسات والنشر، بيروت.
٣. أبوريشه، عمر (١٩٧١)، الديوان. دار العودة، بيروت.
٤. أدونيس، زمن الشعر (١٩٧٢). دار العودة. بيروت.
٥. البحيري، حسن (١٩٨٢). لفلسطين أغنى. دارالحياة، دمشق.
٦. الحوت، محمود (١٩٥١). المهزلة العربية. منشورات البصرى، بغداد.
٧. السوافيري، كامل (١٩٦٤)، الشعر العربي في مأساة فلسطين. مكتبة نهضة مصر.
٨. شمس الدين، محمد (١٩٥٠)، النازحة من صور نكبة فلسطين. دون ذكر مكان النشر.
٩. طوقان، فدوى (١٩٨٣)، ديوانها الليل والفرسان. دارالعودة، ط ٤، بيروت.
١٠. عبد النور، جبور (١٩٧٩). المعجم الأدبي. دار العلم للملايين، بيروت.
١١. قباني نزار (١٩٩٣)، الأعمال الشعرية. ج ٣. منشورات نزار قباني، بيروت.
١٢. القاسم، سميح (١٩٩٣)، الأعمال الكاملة. دارسعاد الصباح.
١٣. الكيالى عبدالرحمن (١٩٧٥). الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين. المؤسسة العربية للدراسات، بيروت.
١٤. محمود، عبدالرحيم (١٩٧٤). الأعمال الكاملة. دار العودة، بيروت.
١٥. هاشم رشيد، هارون (١٩٨٠)، مفكرة عاشق. المطابع الموحدة.
١٦. يعقوب، أميل (د ت). قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية. دارالعلم للملايين.

